

العلاقات العثمانية - البيزنطية

صلاح ضبيع

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة القايي، إحدى قبائل الغزو التركية التي هاجرت من أواسط آسيا في نهاية الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، بسبب ضغط المغول عليهم تحت قيادة جنكيزخان. وكانت هجرة الأتراك العثمانيين بقيادة زعيمهم سليمان شاه، الذي توجه بهم نحو أرمينيا، حيث استقر هناك في المنطقة الواقعة بين أرضروم وأرزنجان على الفرات، وكان ذلك في سنة 621هـ - 1224م. وقد مكث سليمان شاه في تلك المنطقة ما بين ست وعشر سنوات، ثم ما لبث أن غادرها مع أفراد قبيلته إلى أماسيا بالأناضول حيث استقر هناك، ولكن إقامته لم تدم طويلاً، إذ إنه فكر في العودة إلى تركستان وطنه الأصلي، غير أن القدر حال دون بلوغ مطمحه، ذلك أنه مات غريقاً في نهر الفرات وهو في طريق عودته، ودُفن أمام قلعة جَعْبَر، وحتى يومنا هذا يطلق على هذا المكان اسم ترك مزاري أي «قبر التركي».

وعلى كل، فعلى أثر موت سليمان شاه انفرط عقد قبيلته، حيث عادت بعض بطونها إلى خراسان أما البعض الآخر فقد أثر التوجه إلى آسيا الصغرى بقيادة أرطغرل، ابن سليمان شاه، الذي كان لديه أمل كبير في أن يجد الحماية في دولة سلاجقة الروم في قونية، التي كان يحكمها آنذاك السلطان

علاء الدين كيقيباد الأول (1219 - 1236م). ويُجمع المؤرخون على أن السلطان علاء الدين أقطع أرطغرل وأفراد قبيلته المنطقة الواقعة حول سوجوت كموطن ومرعى لهم في الشتاء، وجبال طومانيج وأرميني بيله كموطن ومرعى في الصيف، وقد حدث ذلك حوالي 630هـ - 1232م. وهكذا قامت الإمارة العثمانية على أطراف الحدود البيزنطية الأناضولية في المرتفعات الواقعة في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من آسيا الصغرى.

وفي المنطقة الجديدة التي استقر بها أرطغرل وأفراد قبيلته، بدأ العثمانيون يحضرون لهم موطىء قدم على خريطة العالم. وعندئذ بدأت عجلة الصراع تدور بينهم وبين البيزنطيين في آسيا الصغرى، فاستولى العثمانيون في عهد أرطغرل على بعض المدن والقلاع البيزنطية هناك، كما ساعدوا الدولة السلجوقية في بعض حروبها ضد البيزنطيين. ولكن الصراع بين العثمانيين والبيزنطيين لم يكن قد بلغ أوجه في عهد أرطغرل، وهذا ما يدفع إلى القول إنَّ هذا الصراع كان يُمثل إرهابات نزاع مسلح سوف يطول أمده.

وقبل المضي قدماً في إطلالة على الصراع العثماني البيزنطي، لا بد من الإشارة إلى وضع الدفاعات البيزنطية الآسيوية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي. فبيزنطة التي تمت استعادتها من اللاتين في سنة 1261م، كان على رأسها آنذاك الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (1261 - 1282م) Michael VIII Palaeologos، ولكن نظراً إلى أن هذا الإمبراطور كان قد اعتلى العرش البيزنطي في سنة 1259م عن طريق الاغتصاب من أسرة لاسكاريس فقد قام بإعفاء أعداد كبيرة من القوات البيزنطية العاملة على حدود بيزنطة الآسيوية التي كانت موالية لهذه الأسرة، خوفاً من قيام هذه القوات بالثورة ضده، أمّا القوات التي بقيت وأيضاً السكان فقد أُنقل الإمبراطور كواهلهم بالضرائب. وترتب على ذلك تحول القوات البيزنطية العاملة في مناطق الحدود البيزنطية الآسيوية إلى الأتراك العثمانيين، كما نهج نهجهم السكان المحليون في تلك المدن. فقد رأى السكان أن الانفضاء تحت الحكم العثماني قد يكون أفضل بكثير من حكم الإمبراطور ميخائيل الثامن. وهكذا،

في الوقت الذي أصبحت فيه الغارات العثمانية على الحدود البيزنطية الآسيوية عنيفة، كانت المقاومة البيزنطية هناك عاجزةً إلى أقصى درجة.

وعلى ذلك، عندما اعتلى السلطان عثمان (1288 - 1326م) العرش العثماني خلفاً لوالده أرطغرل، وجد الطريق ممهداً للزحف داخل الأراضي البيزنطية الآسيوية. وفي البداية انتهج عثمان سياسة (فرق تسد) بين قادة المدن والقلاع البيزنطية في آسيا الصغرى، إذ إنه أقام علاقات صداقة مع بعض القادة، في الوقت الذي كان مُعادياً فيه للبعض الآخر، وبهذه الطريقة نجح في الاستيلاء على العديد من القصبات والقلاع البيزنطية. ولم تفلح المقاومة البيزنطية في وقف الزحف العثماني داخل الأراضي البيزنطية الآسيوية. ومع بداية القرن الرابع عشر الميلادي لم يُعد لبيزنطة في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى غير مدن بروسة ونيقية ونيقوميديّة والأقاليم التي تقع فيها تلك المدن.

ويتطلع السلطان عثمان إلى فتح مدينة نيقية. فيبدأ القلق بالظهور - لأول مرة - في مدينة القسطنطينية، بل إنّ الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني باليولوغوس (1282 - 1329م) Andronikos II Palaeologos اعتبر عثمان من أخطر القادة الأتراك على إمبراطوريته، فراح يعمل على وجه السرعة لإيقاف تقدمه داخل أراضيه. لذا أرسل لقتاله حملة عسكرية مؤلفة من ألفي جندي من قواته النظامية، غير أن هذه الحملة هُزمت هزيمة مدوية في 27 يوليو 1301م على مقربة من مدينة قويون حصار (بافيوم)، الواقعة في ضواحي مدينة نيقوميديّة. وليس من شك أن هذا الانتصار أعطى الإمارة العثمانية صفة الاستمرارية ومكن لها في آسيا الصغرى.

وبدأت صفحة جديدة من العلاقات السياسية بين العثمانيين والبيزنطيين بعد موقعة بافيوم. فقد زحفت القوات العثمانية على مدينة نيقية وفرضت الحصار عليها، ولكنها فشلت في أخذها عنوة، نظراً لمتانة أسوارها، فأقام عثمان على مقربة من أبواب قلاعها الحصينة، وملأ تلك القلاع بالقوات. وكان يهدف من وراء ذلك إلى تجويع سكان المدينة ليُجبرهم في النهاية على الاستسلام.

وعندما رأى قواد المدن البيزنطية في آسيا الصغرى مدى خطورة عثمان على مدنهم، عقدوا النية على القضاء عليه. ومن أجل ذلك تكون حلف ضده في سنة 707هـ - 1307م، وكان الحلف يهدف إلى مهاجمة عثمان بغتة في عاصمته يني شهر، بيد أنَّ عثمان تمكن من تشتيت قوات هذا الحلف. ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن المقاومة البيزنطية في آسيا الصغرى انهارت تماماً بعد سنة 1307م. وهذه حقيقة واقعة، لأن فتوحات عثمان داخل الأراضي البيزنطية سارت بخطى سريعة بعد سنة 1307م، فتساقطت المدن والقلاع البيزنطية في يده كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف.

وقد أدرك عثمان منذ البداية أن دولته لن يكتب لها الاستقرار إلا بالاستيلاء على مدينة بروسة. ففرض الحصار عليها في سنة 1318، وجرت محاولات عدة لاقتحامها في سنة 720هـ - 1320م و722هـ - 1322م، غير أنها باءت بالفشل، لكنَّ الحصار ظل مفروضاً عليها إلى أن سلمت في سنة 726هـ - 6 أبريل سنة 1326م. وتجمع المصادر والمراجع على أن أورخان ابن عثمان كان متسامحاً مع سكان مدينة بروسة، فقد عاملهم مُعاملةً حسنة، ومن أراد منهم مغادرتها تركه وشأنه، ولم يسمح لأحد أن ينتزع أي شيء من أمتعتهم. والجدير بالذكر، أنه باستيلاء العثمانيين على مدينة بروسة فقد رسخت أقدامهم في آسيا الصغرى. أمّا على الجانب البيزنطي فقد ضاعت هيبة بيزنطة تماماً وغدت نهاية حكمها هناك ظاهرةً للعيان.

لكن، من جهة ثانية؛ فإنه عندما سقطت مدينة بروسة في يد العثمانيين كان عثمان وجودُ بآخر أنفاسه فاعتلى عرش الدولة العثمانية بعده ابنه السلطان أورخان (1326 - 1359م) وكان أول عمل قام به هو نقل عاصمة دولته من يني شهر إلى مدينة بروسة. ثم رأى أن إقامة دولة ثابتة الأركان لن يتم إلا بفتح مدينتي نيقية ونيقوميديا البيزنطيتين. ومن أجل ذلك واصل زحفه داخل الأراضي البيزنطية، فاستولى على العديد من المدن والقلاع عن طريق القوة تارة، وبالتسليم تارة أخرى، حتى أمكنه في النهاية قطع خطوط المواصلات

البرية والبحرية بين مدينة القسطنطينية ونيقوميديّة، ثم راح يعدّ العدة لمهاجمة مدينة نيقية.

وأثناء ذلك كان الإمبراطور أندرونيقوس الثالث باليولوغوس (1328 - 1341م) Andronidos III Palaeologos قد اعتلى العرش البيزنطي، فسعى لإنقاذ مدينة نيقية على الأقلّ وإيقاف التقدم العثماني الجارف تجاه مدينة القسطنطينية. لذلك قاد بنفسه حملة عسكرية، عبّر بها البسفور، في أول يونيو سنة 1329م، وخ بلكانون (مالتيب اليوم) - على سواحل خليج نيقوميديّة - نشبت إحدى المعارك القوية في التاريخ بين العثمانيين والبيزنطيين، وكان النصر حليف العثمانيين بقيادة أورخان، الذي تعقبت قواته الفلول البيزنطية الهاربة إلى فيلوكرين، وأعملت فيها القتل. ولقد أصيب الإمبراطور أندرونيقوس في معركة بلكانون وولى هارباً إلى القسطنطينية، وكان هروبه إيذاناً بـ «تخلي ورثة القياصرة عن آسيا الصغرى إلى الأبد» كما قال أحد المؤرخين المحدثين.

وكان أن تقدم السلطان أورخان على رأس قواته بعد موقعة بلكانون - فيلوكرين إلى مدينة نيقية، فسلمت إليه دون قتال في 21 جمادى الأولى سنة 731هـ - 2 مارس 1331م. ويومها سمح أورخان للقائد البيزنطي لمدينة نيقية بمُغادرتها إلى القسطنطينية، كما سمح أيضاً لأهالي المدينة بالبقاء فيها أو مُغادرتها متى شاءوا. وهذا يدل على سماحة الدين الإسلامي وحكمة أهله. ولا شك أنه بسقوط مدينة نيقية في يد العثمانيين، فقد انتهت سلطة الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى.

واصل السلطان أورخان فتوحاته داخل الأراضي البيزنطية الآسيوية فاستولى - بمساعدة ابنه سليمان - على بعض القلاع والقرى البيزنطية. وفي سنة 1333م عُقدت مُعاهدة سلام بين العثمانيين والبيزنطيين. ولكن هذه المُعاهدة لم تمنع العثمانيين من مُهاجمة الأراضي البيزنطية، ففي سنة 1337م هاجمت البحرية العثمانية ضواحي مدينة القسطنطينية في أوروبا، غير أن الأسطول البيزنطي تمكن من إبادة معظم السفن العثمانية.

ولم يكن السلطان أورخان بالرجل الذي يقبل الهزيمة، فلأجل الانتقام لنفسه قاد قواته على الفور وشدّد الحصار على مدينة نيقوميديّة، وبعد عدة جولات من المفاوضات سلّمت المدينة، وغادرتها حاكمتها تحت حماية العثمانيين، أمّا السكان فقد خيّرهم السلطان أورخان بين الرحيل أو البقاء، وقال لأتباعه: «عليكم مُراعاة ألاّ يضيع لسكان المدينة الذين رغّبوا في الرحيل أي شيء حتى ولو كان مجرد قشة، لأننا لسنا خائنين لعهودنا». وعلى أية حال، باستيلاء السلطان أورخان على مدينة نيقوميديّة فقد سقط آخر معقل للبيزنطيين في الركن الشمال الغربي من آسيا الصغرى، ووصلت حدود الدولة العثمانية إلى البوسفور. وعند ذلك أصدر الإمبراطور أندرونيقوس الثالث باليولوغوس مرسوماً حذّر فيه بإعدام كل من يُزسى سفينة أو مركباً على سواحل هذا المضيق أو سواحل مضيق غاليبولي. إذ إن الإمبراطور كان يأمل في أن تكون هذه الحواجز الطبيعية سداً بينه وبين السلطان أورخان، الذي كان يفكر آنذاك في عبور هذه المضائق إلى أوروبا.

وجاءت السلطان أورخان أخيراً الفرصة. فعلى أثر وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثالث باليولوغوس في 14 - 15 يونيو 1341م، نشبت حرب أهلية طاحنة على العرش البيزنطي، بين الإمبراطورة آنا Anna - أرملة أندرونيقوس والوصية على ابنه يوحنا وبين يوحنا كوزانوس الذي كان هو الآخر وصياً عليه. فاستعانت الإمبراطورة آنا بالسلطان أورخان، الذي مدّ لها يد العون. ولكن عندما وجد يوحنا كانتا كوزانوس أنه لن يحسم مسألة العرش البيزنطي لصالحه إلا بمساعدة أورخان، فقد طلب منه المساعدة مُقابل زواجه من ابنته تيودورا. فألقى أورخان بثقله إلى جانب كانتا كوزانوس حتى رجّعه كفته في هذه الحرب سنة 1347م، ومكّنه من أن يكون إمبراطوراً شرعياً مع يوحنا بن أندرونيقوس الثالث.

وفي سنة 1347م تقابل السلطان أورخان مع كانتا كوزانوس في اسكوتاري، وفي هذه المُقابلة طلب كانتا كوزانوس مُساعدة أورخان ضد

العرب، فاستجاب أورخان. ولكن علاقات الصداقة والمصاهرة بين أورخان وكانتا كوزانوس لم تمنع القوات العثمانية من مهاجمة الأراضي البيزنطية في أوروبا، لكن ذلك الهجوم باء بالفشل. ومرة أخرى يطلب كانتا كوزانوس المساعدة من أورخان ضد العرب، فأرسل إليه الأخير المساعدات في سنة 1349م، وكانت عبارة عن عشرين ألف جندي. وسنة 1352م تمكنت القوات العثمانية من إبادة القوات الصربية في معركة إيمبيثيون على نهر مايتزا. وفصل الخطاب، أن الأتراك العثمانيين كانوا هم فقط المستفيدين من الحرب الأهلية البيزنطية، لأن هذه الحرب مكنتهم من عبور المضائق الذي ترتب عليه الاستقرار في البلقان.

لم يترك العثمانيون الفرصة التي لاحت لهم بسبب الانقسامات الداخلية على العرش البيزنطي تمر دون الاستفادة منها، لا سيما بعد أن أصبحوا ملمين بالوضع في منطقة البلقان. وتقول الأقاصيص إن سليمان بن أورخان تمكن في إحدى الليالي من عبور الدردنيل مع بعض من رجاله على بعض الألواح الخشبية واستولى على قلعة تذييمب في سنة 1352م. ثم واصل بعد ذلك فتوحاته داخل الأراضي البيزنطية في أوروبا والتي كان من أهمها مدينة غاليبولي التي سقطت في يده سنة 1354م. ودارت المفاوضات آنذاك بين أورخان وابنه سليمان وبين الإمبراطور يوحنا كانتا كوزانوس من أجل تسليم الأراضي التي استولى عليها العثمانيون في أوروبا إلى البيزنطيين ولكنها باءت بالفشل. ولقد اعتبر الشعب البيزنطي الإمبراطور يوحنا كانتا كوزانوس مسؤولاً عن الاستقرار العثماني في البلقان الأمر الذي دفع الإمبراطور إلى التنازل عن الحكم في 4 ديسمبر سنة 1354م.

وبصرف النظر عن الجالس على العرش البيزنطي، فإن عجلة الفتوحات العثمانية التي بدأت دورانها في الأراضي البيزنطية في البلقان لم تتوقف، إذ إن سليمان واصل فتوحاته، فتساقطت المدن والقلاع في يده، والتي كان من أهمها مدينة ديموتيقية سنة 1357م. وفي أثناء ذلك خطف بعض القراصنة البيزنطيين خليل بن السلطان أورخان، وتم التحفظ عليه في مدينة فوكيا

الجنوبية، ولكن الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوغوس - تحت ضغط أورخان - تمكن من إطلاق سراحه بعد دفع فدية مالية ضخمة.

على أية حال، اعتلى السلطان مراد الأول (1359 - 1389م) العرش العثماني في سنة 1359م، بعد وفاة والده أورخان، ولم تتوقف الفتوحات العثمانية في عهده، والتي كان من أهمها مدينة أدرينوبل (أدرنة) في سنة 1361م، وفيليبوبوليس سنة 1363م. وعندما شعر الإمبراطور يوحنا الخامس بخطورة وضعه عقد مُعاهدة سلام مع السلطان مراد الأول، اعترف فيها بالسلطان سيداً له.

والحقيقة أن البابوية تغاضت تماماً عن الفتوحات العثمانية في الأراضي الأوروبية، طالما كانت هذه الفتوحات على حساب البيزنطيين الهراطقة في نظرها. ولكن عندما بدأت هذه الفتوحات تهدد حدود الدول الأوروبية التي تدين بالمذهب الكاثوليكي والخاضعة لطاعة البابوية الروحية، سعى البابا أوربان الخامس (1362 - 1370م) Urban V، لإعداد حملة صليبية ضد العثمانيين. وقاد هذه الحملة أماديو السادس كونت ساقوي، ولكنها لم تستول من العثمانيين إلا على مدينتي غاليبولي سنة 767هـ - 1366م، وبعض القلاع على الساحل الأوروبي لبحر مرمرة، ثم قفل أماديو عائداً لأوروبا في سنة 1367م.

وفي سنة 1369م قام الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوغوس برحلة إلى الغرب الأوروبي اعترف فيها بالديانة الكاثوليكية، لكي يتمكن من طلب المساعدة من الغرب، ولكنه لم ينل سوى وعود جوفاء. وعندئذ أدرك أنه ينبغي عليه اتخاذ خطوة لا بد منها، فأقدم على إقامة مُعاهدة سلام مع السلطان مراد الأول سنة 1372م. ولقد أظهرت هذه المُعاهدة مدى ما كان يُعانيه الإمبراطور من ضعف. ولك أن تعلم أن الإمبراطور قد تعهد بدفع جزية سنوية إلى مراد، والاعتراف به سيداً له ومساعدته عسكرياً إذا اقتضت الظروف.

وبعيداً عن العلاقة بين الإمبراطور والسلطان، نرى أنه كانت هناك علاقة من نوع خاص بين ولديهما، ساووجي شبلي بن مراد وأندرونيقوس بن يوحنا الخامس - وصلت إلى حدّ اشتراكهما معاً في ثورة ضد أبويهما، سنة 1373م، بهدف الإطاحة بهما، وأن يعتلي كل منهما عرش دولته، ويعيشا معاً في سلام، غير أن السلطان مراد أمكنه القضاء على هذه الثورة، وقتل ابنه ساووجي، أمّا أندرونيقوس فقد سمل والده عينيه وزج به في الحبس.

ولكن فشل أندرونيقوس في ثورته ضد والده يوحنا الخامس والعقاب الذي ألم به من جراء ذلك لم ينهيا طموحاته المتمثلة في الإطاحة بوالده عن العرش البيزنطي. فهرب من سجنه في سنة 1376م ولجأ إلى جنوه في جلاتيا (بيرا)، واتصل من هناك بالسلطان مراد الأول طالباً منه المساعدة في دخول القسطنطينية مُقابل بعض التنازلات، فأمدّه مراد بقوة عسكرية هائلة مكنته من دخول القسطنطينية في 12 أغسطس 1376م. وعندئذ ألقى القبض على والده الإمبراطور يوحنا الخامس وأخويه مانويل وثيودور وزج بهم في السجن.

ولم تمض سوى ثلاث سنوات على سجن الإمبراطور يوحنا الخامس وولديه حتى تمكنوا من الهرب في يونيو 1379م، وعبروا جميعاً البسفور إلى السلطان مراد، حيث عقد معه يوحنا اتفاقية تعهد له فيها بالعديد من التنازلات مُقابل إعادته إلى عرشه، فقدم له مراد القوات التي مكنته من دخول القسطنطينية في يوليو 1379م، وهرب أندرونيقوس إلى جلاتيا، وفي النهاية توصلت الأطراف المُتصارعة إلى تسوية في مايو 1381م، والتي بمقتضاها أصبح أندرونيقوس وارثاً لوالده في حالة وفاته. والمتأمل يرى هنا أن السلطان مراد أصبح هو الحَكَم بين أفراد عائلة باليولوغوس، يعزل منهم من يشاء ويولي من يشاء أو يوليهم جميعاً حتى غدوا أفضالا له.

وفي أثناء ذلك سعى أحد أفراد أسرة باليولوغوس وهو مانويل ابن الإمبراطور يوحنا الخامس إلى نفض علاقة التبعية للسلطان مراد عن كاهله، فكان ثمن ذلك استيلاء مراد على مدينة سالونيك في 9 أبريل 1387م، وهروب مانويل منها وسعيه إلى اللجوء لدى معارفه من الحكام إلا أنهم

رفضوا جميعاً استقباله بما في ذلك القسطنطينية نفسها، فما كان منه إلا أن ذهب إلى مراد في بروسه وقدم له فروض الولاء والطاعة فسامحه مراد. ولم يتخلص أفراد أسرة باليولوغوس من علاقة التبعية لمراد إلا بوفاته في معركة كوسوفو KOSOVO في 15 يونيو سنة 1389م.

اعتلى السلطان بايزيد الأول (1389 - 1402م) العرش العثماني في أعقاب وفاة والده مراد الأول. فتابع سياسة التدخل في الصراعات العائلية بين أفراد أسرة باليولوغوس. ولقد ظهر ذلك واضحاً في مُساعدته ليوحنا السابع ابن أندرونيقوس الرابع على دخول القسطنطينية في 14 أبريل سنة 1390م، لكن الإمبراطور يوحنا الخامس تمكن من طرده منها.

ووصلت الأوامر من قبل السلطان بايزيد إلى الإمبراطور يوحنا الخامس، بأن يُرسل إلى الأول مائة جندي بقيادة ابنه مانويل، ولم يكن أمام الإمبراطور سوى السمع والطاعة. وفي آسيا الصغرى ساعد مانويل السلطان بايزيد في الاستيلاء على مدينة فيلادلفيا، آخر معاقل البيزنطيين في آسيا الصغرى. وقد استغل الإمبراطور يوحنا فرصة غياب بايزيد في آسيا وأجرى بعض الإصلاحات في أسوار القسطنطينية، ولكنه ما لبث أن هدمها بأوامر من بايزيد، الذي هدد بسمّل عيني ابنه مانويل وإرساله إليه أعمى. ولم يستطع الإمبراطور تحمل كل هذه الإذلالات فمات كمدأ في 16 فبراير سنة 1391م. وعندما وصلت أخبار وفاته إلى ابنه مانويل هرب من معسكر السلطان بايزيد في آسيا واعتلى العرش البيزنطي (1391 - 1425م). فتتابعت عليه الأوامر من قبل بايزيد بالعديد من المطالب، ويومها قال له السلطان: «إذا لم تكن راغباً في تنفيذ أوامري، فأغلق عليك أبواب مدينتك، واحكم داخلها، لأن كل ما هو موجود خلف الأبواب ملك لي».

ويبدو أن مانويل قد أخذته العزة فرفض تنفيذ أوامر بايزيد، فدفع الأخير بقواته إلى تراقيا وحاصر القسطنطينية، ولم يُرفع الحصار إلا بعد استجابة مانويل لمطالب بايزيد، والتي كان من ضمنها إقامة مسجد في القسطنطينية. وفي 8 يونيو سنة 1391م قدم مانويل إلى آسيا الصغرى على رأس قواته

لمساعدة بايزيد في بعض حروبه هناك، ولم يُغادرها إلا في يناير سنة 1392م. ولكن بعد اجتماع مدينة سريس شتاء سنة 1393 - 1394م، الذي جمع السلطان بايزيد بكل قواد الدول التابعين له قرر الإمبراطور مانويل التخلص من علاقة التبعية لبايزيد. ففرض بايزيد الحصار على القسطنطينية سنة 1394م، واستولت قواته على كل أملاك مانويل خارجها، وراح الجميع يترقبون سقوط المدينة في يد العثمانيين. وضاعت نداءات الإمبراطور إلى الغرب الأوروبي بالمساعدة أدراج الرياح، فلم تصله إلا مساعدة قليلة من فرنسا، لم تستطع أن تبعد الخطر العثماني عن القسطنطينية. فسافر مانويل بنفسه إلى دول أوروبا متسولاً منها المساعدة لإنقاذ عاصمته، ولكن لم يُقدّم أحد على مُساعدته، فمكث في باريس منتظراً وصول خبر فتح السلطان بايزيد للقسطنطينية.

وعلى أية حال، فقد جاء إنقاذ القسطنطينية من الشرق وليس الغرب. فقد حدث آنذاك أن عاثت جحافل المغول بقيادة تيمورلنك فساداً في الأملاك العثمانية الآسيوية، مما دفع بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعبور إلى آسيا، ولكنه لقي حتفه في موقعة أنقره سنة 1402م. فالتقطت القسطنطينية آخر نفس في حياتها، الذي أطال في عمرها نصف قرن.

قلبت موقعة أنقرة ميزان القوى لصالح البيزنطيين، بدليل المُعاهدة المذلة التي وقعها الأمير سليمان بن السلطان بايزيد مع الإمبراطور الشريك يوحنا السابع سنة 1403م. كما أن هذه الموقعة مكنت الإمبراطور مانويل الثاني من العودة إلى القسطنطينية. وقد واكبت عودته نشوب الحرب الأهلية على العرش العثماني بين أبناء السلطان بايزيد، فأدلى الإمبراطور بدلوه فيها، مُساعداً أطرافها كل ضد الآخر، حتى انفرد السلطان محمد الأول (1413 - 1421م) بالعرش العثماني سنة 1413م. ولقد شهدت العلاقات بين العثمانيين والبيزنطيين هدوءاً نسبياً في عهده، كما أنه كانت تربطه علاقات صداقة مع الإمبراطور مانويل الثاني، لدرجة أن محمداً أوصى وهو على فراش الموت بوضع اثنين من أولاده الصغار تحت وصاية الإمبراطور.

اعتلى السلطان مراد الثاني (1421 - 1451م) العرش العثماني في أعقاب

وفاة والده محمد الأول. وعند ذلك وصلته سفارة من قبل الإمبراطور مانويل الثاني تُطالبه بإرسال اثنين من إخوته إلى القسطنطينية، كما أوصى والده، ليكونا تحت وصاية الإمبراطور فرفض مراد، وأمام هذا الرفض أشعل الإمبراطور الفتنة على العرش العثماني، بإطلاقه سراح الأمير مصطفى الذي كان يدعى أنه ابن السلطان بايزيد وقدم له المُساعدات العسكرية التي مكنته من الاستيلاء على بعض الأراضي العثمانية في أوروبا، ولكن السلطان مراد أمكنه القضاء عليه، ثم أعلن الحرب على الإمبراطور مانويل - المتسبب في هذه الفتنة - وحاصر القسطنطينية في يونيو سنة 1422م، وضيق الخناق عليها حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من يديه. غير أن الإمبراطور الماكر ما لبث أن حرك الثورة ضده في آسيا الصغرى، الأمر الذي دفعه إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والذهاب إلى هناك وحيث تمكن من إخماد تلك الثورة.

وكان الإمبراطور مانويل الثاني قد وقَّع في سنة 1424م مُعاهدة مع السلطان مراد الثاني، تنازل بمقتضاها الإمبراطور عن كل المكاسب التي حصلت عليها بيزنطة بعد موقعة أنقرة طبقاً لمعاهدة سنة 1403م، ومن ثم، فإن وضع بيزنطة السياسي في سنة 1424م أصبح نفس الوضع الذي كان قبيل موقعة أنقرة سنة 1402م. غدت القسطنطينية تنتظر مصيراً لا مفر منه على يد العثمانيين.

وعلى أية حال، عندما اعتلى السلطان محمد الثاني (الفاتح) (1451 - 1481م) العرش العثماني، بدأ يعد العدة لفتح مدينة القسطنطينية، فعقد - في البداية - اتفاقية سلام مع الإمبراطور البيزنطي الحادي عشر (1448 - 1453م) Constantine XI، تعهد له فيها بعدم الاعتداء على القسطنطينية. كلما عقد مُعاهدات سلام أيضاً مع العديد من الدول الأوروبية المجاورة لحدوده. وعندما شعر أن وضعه السياسي في أوروبا أصبح آمناً، عبّر إلى الأناضول وقضى على بعض الثورات التي شبت ضده هناك.

وفي أثناء ذلك وصلت سفارة من قبل الإمبراطور قسطنطين إلى السلطان محمد الثاني تُطالبه بزيادة الراتب الذي كان يدفعه لإعاشة أحد أقاربه

الموجودين في القسطنطينية، فانتهز السلطان هذه الفرصة وأعلن الحرب على بيزنطة، وراح يواصل استعداداته. فأجرى بعض الإصلاحات الإدارية في دولته. كما أقام قلعة «الروملي» على البسفور في 13 أغسطس سنة 1452م، رغم المحاولات التي بذلها شعب القسطنطينية وإمبراطورهم لوقف بنائها. وجمع السلطان أيضاً القوات، وبنى الأسطول، وصب مدفعاً عملاقاً، وصفه أحد المؤرخين المحدثين بقوله: «إن المدفع العملاق كان يساوي بالنسبة إلى عصره قنبلة ذرية».

وعلى الجانب الآخر، بذل الإمبراطور قسطنطين قصارى جهده في الاستعدادات للدفاع عن عاصمته. فظهر الخندق المحيط بأسوارها البرية، ورمم تلك الأسوار، وبنى الأبراج، وأقام المتاريس، وجمع الأسلحة والأطعمة. كما أرسل إلى البابا نيقولاس الخامس (1447 - 1455م) Nicholas V، يطلب منه المساعدة، فأرسل إليه الكاردينال أزيدرو لإتمام وحدة الكنائس أولاً - أي قبل المساعدة، وفي 12 - 13 ديسمبر سنة 1452م أعلنت هذه الوحدة في كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية، ولكنها لم تلق قبولاً لدى عامة الشعب البيزنطي، ويومها قال الدوق الكبير لوكاس نوتاراس Lucas Notaras - قائد الأسطول البيزنطي والرجل الثاني في الإمبراطورية -: «إنني أفضل أن أرى عمامة الأتراك حاكمة في القسطنطينية من أن أرى قلنسوة اللاتين». ووجه الإمبراطور أيضاً نداءات وسفارات إلى معظم دول أوروبا طالباً منها المساعدة، ولكن الوضع السياسي في أوروبا لم يكن يسمح بمساعدة بيزنطة آنذاك، ولهذا لم تصله سوى بعض المساعدات الضئيلة من جنوة والبندقية.

وبدأت بوادر حصار القسطنطينية تلوح في الأفق بإرسال المدفع العملاق تجاهها في 2 أبريل سنة 1453م، كما غادر الأسطول العثماني مدينة غاليبولي في نهاية مارس وأول أبريل من نفس العام متجهاً إلى المدينة أيضاً. وفي 23 مارس سنة 1453م تحركت القوات البرية من مدينة أدرينوبل بقيادة السلطان محمد الثاني، وفي 6 أبريل من نفس العام نصبت تلك القوات خيامها أمام أسوار القسطنطينية.

وأرسل السلطان محمد الثاني سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين يعرض عليه السلام مُقابل تسليم القسطنطينية، وتعهد له السلطان بحماية أرواح سكانها وممتلكاتهم، ولكن قسطنطين رفض. فقام السلطان بتوزيع قواته البرية على أسوار المدينة، وحدد لكل قائد من قواده الناحية التي سوف يهاجمها. أمّا قسطنطين فقد قام هو الآخر بتوزيع قواته على أسوارها من الداخل، كما أغلق مدخل القرن الذهبي (الميناء الداخلي) بالسلاسل. وبدأ الجميع يتربع نشوب القتال.

وفي 11 - 12 أبريل سنة 1453م بدأت المدافع العثمانية تطلق قنابلها على أسوار القسطنطينية، فهدمت مساحة كبيرة من السور الخارجي، وقام البيزنطيون على الفور بإصلاح ما تهدم. وفي 8 أبريل من نفس العام دفع السلطان محمد الثاني بهجومه البري الأول، ولكنه باء بالفشل. وفي 20 أبريل نشبت معركة بحرية طاحنة في البسفور بين البحرية العثمانية والبيزنطية كان النصر فيها حليف البيزنطيين.

وعندما وجد السلطان محمد الثاني أن بحريته عاجزة عن اختراق السلسلة ودخول القرن الذهبي، قام بنقل عدد كبير من سفنه من البسفور إلى القرن الذهبي براً من وراء جلاتيا، وحدث ذلك في ليلة 22 أبريل سنة 1453م. وتعد هذه العملية مشروعاً عملاقاً بكل المقاييس، لا سيما عندما نعلم أن طول الطريق البري الذي سارت عليه السفن بلغ حوالى ثلاثة أميال.

وعندما وجد الإمبراطور قسطنطين أن القسطنطينية أصبحت مُحاصرة من كل ناحية أرسل سفارة إلى السلطان محمد الثاني يُطالبه عن طريقها برفع الحصار عن القسطنطينية وفي مُقابل ذلك سيدفع له الجزية التي سيحددها بنفسه. ولكن السلطان رفض ذلك ورد عليه رداً بليغاً قال له فيه: «إمّا أن أحصل على القسطنطينية وإما أن القسطنطينية تحصل عليه». وعلى أية حال، انقضت فترة من 29 أبريل إلى 25 مايو من سنة 1453م في هجمات من قبل العثمانيين ودفاع بطولي من قبل البيزنطيين. ومرة أخرى يعرض السلطان السلام في 25 مايو من نفس العام مُقابل تسليم القسطنطينية، ولكن الإمبراطور

قسطنطين رفض ذلك. وعلى كلّ حدد السلطان محمد الثاني يوم 29 مايو يوماً للهجوم الكبير والأخير على القسطنطينية، ولشحنهم قواته أباح لهم نهب المدينة لمدة ثلاثة أيام.

وفي ليلة 29 مايو سنة 1453م، بدأ الهجوم العثماني الكاسح على القسطنطينية. ولكن القوات البيزنطية نجحت في رد الهجمات العثمانية الأولى. وفي أثناء ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ أن جيوستينياني، الذي كان يُمثل العمود الفقري للدفاع البيزنطي، أصيب أثناء القتال، فغادر أرض المعركة بقواته رغم توسلات الإمبراطور قسطنطين، الأمر الذي كان إيذاناً بانفراط عقد المقاومة البيزنطية. ولقد استغل العثمانيون حالة الإرتباك التي سادت صفوف الجيش البيزنطي بسبب إصابة جيوستينياني، وشددوا من هجومهم براً وبحراً، حتى دخلوا القسطنطينية في 20 جمادى الأولى سنة 857هـ - الثلاثاء 29 مايو سنة 1453م.

وبيديهي أنه كانت ستحدث هناك حالات من النهب والسلب من قبل القوات العثمانية التي دخلت القسطنطينية. فماذا ننتظر من قوات عانت الأمرين في حصار دام من 6 أبريل إلى 29 مايو سنة 1453م، وفي هذا الحصار رأوا مقتل إخوانهم. والحقيقة أن اللاتين عندما دخلوا القسطنطينية في سنة 104م أحدثوا فيها حالات من السلب والنهب فاقت آلاف المرات ما فعله العثمانيون في سنة 1453م. وهذا ما عبر عنه أحد المؤرخين المحدثين بقوله: «إن الأتراك العثمانيين تصرفوا في سنة 1453م بإنسانية ولطف أكثر من الصليبيين في سنة 1204م». والذي يجب أن نعلمه أن نهب وسلب المدينة من قبل قوات السلطان محمد الفاتح لم يستمر ثلاثة أيام كما تعهد السلطان، لأن السلطان عندما دخل المدينة في منتصف الثلاثاء 29 مايو، أوقف حالات النهب والسلب.

وبعد... عزيزي القارئ لقد أخذتك معي عبر قصة كفاح طويلة بين العثمانيين والبيزنطيين، توجت بفتح مدينة القسطنطينية. وأقول لك الآن أن فتح القسطنطينية على يد العثمانيين يُعد حدثاً من أعظم أحداث التاريخ في

العالم. فيكفي أن سقوطها كان إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، كان إيذاناً بزوال إمبراطورية عاشت قرابة ألف ومائة عام وقيام إمبراطورية. كان إيذاناً باستقرار الإسلام في أوروبا وانتشاره في ربوعها. كما أن فتح القسطنطينية حقق الحُلُم الطويل الذي عمل من أجله سلاطين الدولة العثمانية منذ عثمان (1288 - 1326م) وحتى محمد الثاني، الذي نال اسم الفاتح في التاريخ. كما تحقق حُلُم المسلمين الطويل بعد أن فشلوا في الاستيلاء عليها قرابة ألف عام.